لو تكاشف الناس

TROP SAVOIR

لفرنسيس دوبر

بقلم الدكتور محمد الرافعي

كان چان كرمهوت الهولندى مولعاً بجمع الأنواع النادرة من «سامّ أبرص[1]» وكثيراً ما كان يتحدث عن طباع هذه الحشرات وعاداتها حديث العالم المحيط غير جاهل شيئاً عن الألف والسبعمائة نوع المعروفة منها

وكنت لا أعرف عن سام أبرص غير أنه دُوَيبة يتقصَّف ذنبها إذا أخذها الانسان منه ؛ بَيْد أن كرمهوت قرر لى أن هذا الذنب إن هو إلا وسيلة من وسائل الدفاع عن الحشرة ؛ فاذا ما طارد الأبرص ثعبان أو عدو آخر يريد التهامه أمكنه من ذنبه ثم تركه يتلهى به وانخلع منه وأسرع فاختجر بين الشقوق لا يغادرها حتى ينشأ له ذيل آخر يحمل منه سلاحه الطبيعى

* * *

نزلت ضيفاً على چان كرمهوت فى مثواه بمدينة باسوروين على ستين ميلاً من (سويسرا باجا) بجزيرة جاوة . وكان المكان هادئاً جميلاً يبتعث الخيال الشاعر ويطل منه الناظر على القردة فى أشجارها تتقاذف وتتواثب ، وعلى غمام طائر من أسراب الفراش كأنه سحابة ذهبية تحجب الشمس مرة وتنفرج لها مرة

وكنت أكثر الوقت فى شرفة المنزل لا أتحول عنها إلا لضرورة ، إذ كان كرمهوت قد جمع فى داره قرابة خمسمائة حشرة مكفوفة فى أوعيتها ، فكان

(١) هو الذى يسميه العامة (البرص) وسام أبرص كلمة واحدة مبنيه على فتح الجزأين كخمسة عشر ولكننا اقتصرنا على أحد جزأيها للتخفيف

لخفيف أجسامها الصدفية على الرمال فى هذه الأوعية كالضرب على أعصابى دَرَاكاً لا ينقطع

وفى هذه الشرفة قص على كرمهوت قصة سامّ أبرصٍ نادر عثر عليه هو وصديقه ريشارد مرل وسماه باسمه

* * *

كان ريشارد هذا انجليزياً فارع القامة وثيق التركيب أحمر الوجه عريض الجبهة بارد الطبع . تزوج وهو فى السادسة والأربعين امرأة تصغره باثنتين وعشرين سنة ؛ ناضرةً بضة كالزهرة ، لها عينان زرقاوان تدلان على دلالة . . . وتنبعث منهما جاذبية قوية لا تدفع ، وكأنما تقول لمن ينظر إليها من الرجال : « إن زوجى غائب غيبة طويلة للصيد وقد تركنى وحدى فى هذا الشباب وهذا الجمال ؛ أفيرضيك أن أكون وحدى . . . ؟ »

ولنعد إلى قصة الأبرص . قال محدثى : إن مرل رآه فأهوى إليه وانتزعه من بين الحشائش ، وما كاد يجمع يده عليه حتى صرخ : لقد لدغنى فى أصبعى

قال فنظرت فاذا إصبعه دامية يغور فيها الجرح ، غير أنه لم يكن خطراً لأن سم هذه الدُّوبية لا يقتل الانسان . فضمدت له جرحه ثم جلسنا نتأمل صيدنا . ولأول نظرة تبين لنا أن هذا الأبرص مما لا يعثر عليه إلا فى الندرة

* * *

كان ذلك فى الساعة الثانية بعد الظهر فلم تنقض ساعة بعدها حتى أنكرت وجه مرل ، فقد

انكفأ لونه وتغير وأصبح كالشمع ، فأسرعت أجس نبضه فاذا هو بضرب ثلاثين ومائة كالذى أوهنه المرض ؛ بيد أن الذى أدهشنى أنه لم يهن ولم يضعف ولم يتغير بل زاد قوة ونشاطاً ، وأحس نشوة كأنه شارب ثمل . ثم رأيته وقد انطلق لسانه كالذى أخذت فيه الخمر مأخذها فحسبته يهذى . وقال فيما قال :

أتعرف يا كرمهوت أنه قد كُشف عن بصرى الآن ، فأنا أطالع أفكارك وأفكار هؤلاء الحمالين الثلاثة الذين معنا ؟

فقلت وقد أيقنت أن به مسّ الحمّى :

لا ريب فى ذلك إن كان مكراً مما تمكر ، أو مزحاً مما تمزح

قال : ليس بى مكر ولا دُعابة ، ولكنه ما أقول لك ؛ أفأخبرك بما فى نفسك الآن ؟

فابتسمت سخرية به ، وقلت له : إن كان هذا من لدغة الأرص ؛ فقد وقعت لنا عجيبة العجائب ، ولكن ما الذى يكشف لك منى ؟

فأغمض عينيه كالذى يجمع فكره ثم قال :

إنك تفكر الساعة يا كرمهوت فى تلك الخادم التى رأيناها بالحانة فى سنغافورة

فذهلت مما أسمع إذ لم يعُدْ ما فى نفسى ، وخجلت مما اطّلع عليه من شأنى . وكانت أشعة الشمس الفضية وهى تتناثر من غصون الشجر قد نبهت فى مخيلتى أشعة مثلها من حسن تلك الحسناء . ولكنى على ذلك رأيت أن أثبت فقلت لمرل : أحسبك مجنوناً فما فكرت فيها قط

ولكنه نظر إلى خجلى نظرة كانت رداً . فسألته بعد هنيهة وقد أغفى قليلاً : كيف أنت الآن وتلك الحالة ؟ قال : كما هى

قلت : فيحسن بك أن تطالع أفكار هؤلاء الحمالين فقد رأيتهم يتناجَون فيما بينهم وأحسب لهم شأناً . فحدق النظر فى الحمالين ثم شَخَص بصرُه لا يَطْرف ، وقال بصوت بَرَد له الدم فى عروق : إنهم يأتمرون بنا ليقتلونا

فتناهضت فزعاً فأمسك بى وقال : لا ينبغى أن يعرفوا أننا اطلعنا على سرهم . قلت أواثق أنت مما تقول ؟

قال : كوثوقى من تفكيرك فى تلك الحسناء

* * *

ثم استغاق مرل من تلك الغشية فتلون وجهه ورجع النبض إلى حالته الطبيعية وزال ما اعتراه من لدغة الأرص فتنهد تنهداً طويلاً ثم قال : عجيب أن يفكر هؤلاء الشياطين فى قتلنا . فأجبته وأنا أتكلف الضحك : عجيب حقاً ولكن ترى كيف يغتالوننا ؟

قال : لا أدرى فقد انجابت عنى تلك الغشية ؛ ولقد كنت أرى كل شىء واضحاً بينا ؛ وكانت عينى فى طويتك فعلمت علمك حتى ما وسوست به من أنك عند رجوعك الى سنغافورة ....

قلت : حسبك فلقد كان ذلك ولكن الذى بنا الآن هو أن نعرف ما ذا يريد بنا الحمالون ؟

* * *

جلسنا أمام الأرص وهو يرمقنا بعينيه وأفضنا فى أمر تلك الخارقة العجيبة وتعليلها فانتهينا الى أنها كغيرها من ممكنات العلم ، وهى ليست أعجب من تلك المادة التى جربها علماء أمريكا فى المجرمين فأخذتهم عن وعيهم حتى أقروا وهم لا يشعرون ،

وسكت ظاهر الرجل منهم وتكلم باطنه . إن هذه المادة تبطل عمل الكتمان كالخمر ....

ولما كانت حواس الانسان تسجل الأشياء عادة من تلقاء نفسها بارادته وبغير ارادته ، فى وعى وبغير وعى ، فان سم هذا الأبرص يهيج ولا شك قوة التسجيل هذه الى وقت محدود ، وينشط العقل الباطن فيصفو المخ وينكشف له كل ما سجلته الحواس . فلا جرم كانت حواس مرل قد سجلت أشياء كثيرة فيما يختص بهؤلاء الحمالين ، ولكن طمس عليها انشغال مخه بأشياء أخرى

ثم قلت : أما أنا فأعتقد أن هذا السم يهيج القوى الباطنة فيكشف للانسان ما تسجله طبيعته الحيوانية ، فهو يجعل الروح الغريزية فوق العقل . وعلى كل حال فلسنا الآن فى السم والسام ولكن فى التنبه للحمالين هذه الليلة

* * *

كانت الليلة مُلتَجَّةً بظلامها سواد على سواد ؛ وكانت السماء ضريرة النجم ، والغابة ساكنة كأنها تتوقع أمراً فهى تحبس أنفاسها ، والحيوان كله صامت كأنما يتربص كلٌّ لكلّ . فجعلنا نتناوب الليل ، أحرس وقتاً ويحرس مرل وقتاً فلما كنت فى نوبتى شعرت بدخول الحمالين .. لم أسمع لهم حساً فان جريان الدم فى أذنى ربما عاقهما عن ارهاف السمع . ولكن دلنى عليهم اقشعرار بدنى ونفور الشعيرات الدقيقة الحس ؛ فمددت يدى وأيقظت مرل

وكان أحد الحمالين فى زحفه على الأرض قد مسَّ رماد النار وهى كابية تحته ، فانبعثت منه آهة لم يتمكن من ردها . وفى هذه اللحظة هجم علينا ثلاثة الحمالين هجوم رجل واحد ، فتلقيناهم بالرصاص فقتلنا منهم اثنين وفر الثالث

وفى صبيحة تلك الليلة حملنا القليل من حشراتنا والضرورى من المتاع والزاد وعمنا شطر النهر . وقال مرل وهو يحمل ذلك الأبرص العجيب : هل تعتقد يا كرهوت أن فى الامكان قراءة أفكار أى الناس ممن نعرف ومن لا نعرف ؟

قلت : كلا بل الذين نعرفهم دون غيرهم فسكت ونكس بصره كالمفكر ومشينا حتى إذا توقدت الشمس فى الظهيرة ولفح الهواء جلسنا لطعامنا وتروحنا ساعة ، ثم حزمنا أمتعتنا ، وبينما كنت أتفقدها سمعت مرل يصرخ وهو قابض على الأبرص بيديه ؛ فقلت ويحك ماذا تصنع ! قال : ليست هذه غلطتى ولكن الحيوان قد ندَّ فأمسكته

ونظرت فرأيته قد انكفأ لونه ثم اعتراه ما اعتراه من قبل ثم شع فى عينيه ذلك البريق الغريب ، قلت : هل لدغك مرة أخرى ؟ فأومأ أن نعم ؛ فانتزعت الأبرص وألقيته فى صندوقه

ولم أكن فطنت لما أراد مرل من سؤاله فارتعدت من هول الحقيقة التى ظهرت لى ؛ فهو قد استلذع الأبرص هذه المرة ليطلع من بعيد على أفكار شخص يعرفه حق المعرفة ، ولكنه لم يفكر فيه بالأمس ... وكنا على عشرين ميلاً من النهر ولم نجد ظهراً ولا إنساناً يحمل عنا فماذا هو صانع إذا اطلع على ريبة .. فى تلك الأفكار المخبوءة وراء العينين الجميلتين ... عيني زوجته التى تركها مبذولة الخدر فى سنغافوره ... ؟

ولم ألبث إلا يسيراً حتى رأيته قد وثب قائماً وهو يرجف ويضطرب ، ومر يعدو نحو النهر

فناديته : أمتعتك يا مرل ؟ فاستدار ينظر إلىّ بعينىّ مجنون فى وجه قاتل ، وصاح بى : ماذا تريد ؟

قلت : خذ عنى أمتعتك أو احمل على الأقل هذه الحشرات

قال : ليأخذك الشيطان أنت وحشراتك . ثم طار على وجهه فى الغابة ، فأسرعت أحمل ما خفّ ومى الأبرص ، وجعلت أعدو خلفه وهو منطلق يصيح ويلعن جميع النساء من ذوات العيون الزرق ...

* * *

الحرّ شديد كاللظى ، والأبخرة الخانقة تتنفس من جوف الغابة ، والنبات المتعلق يلتف بساقىّ ، فيجاذبنى وأجاذبه ، ودود العلق يتزاحف على جسمى ويندس بين ثيابى ، والذباب يتناولنى بلسعه ، والعرق يتحدّر من جبينى فيكاد يُغشى على بصرى وأنا فى ذلك أعدو أشدّ العدو لألحق بالرجل . فبعد لأىٍ أدركت أثره وسمعت حسيسه فجعلت أصيح به أن يقف أو يتمهل وهو لا يلتفت إلىّ ولا يسمع إلا صوت دمه يريد أن يغسل شرفه بالدم ، فقد اطلع على أفكار زوجته التى تركها وحدها ! واستمر هذا منى ومنه إلى الليل فكدت أجن مثله ...

* * *

أقبلتْ علىّ الأمانى والأحلام ، فتوهمتُنى أصبحت من أهل الثراء ، ثم من ذوى الملايين إذ أبيع « لدغات الكشف » بالثمن الغالى لكل زوج غيور ... ورأيتنى فى قصرى الجميل أملك ما أملك وأنفق ما أنفق وأنال ما أنال وسوف وسوف ... حقاً لقد كنت مجنوناً مثل صاحبى فان الحرارة والأبخرة ودود العلق والذباب قد ملأت رأسى ضباباً ...

وأظلم الليل وبلغنا النهر ، وكنت أخشى أن يقذف مرل نفسه فيه ليعبره سباحة إلى بنجارون وفى النهر التماسيح ... غير أنه ثبت على الشاطىء فأدركته فاذا هو ممزق الثياب أشعث أغبر منتفخ الوجه مخدّش الأديم كأنه وحش فى إنسان . فأعطيته ما يتبلّغ به وسقيته جرعة من الكحول ، وسألته أن ينام ، ولكن أنى له النوم وقد رأى ما رأى من أمر زوجته ... وخشيت إن أنا نمت أو غفلت أن يسلبنى الأبرص وفيه ثروتى وأحلامى وشهرتى التى تملأ الدنيا . فحطمتُ أعصابى فى مدافعة النوم وبت هالكا تعباً وسهراً وخشية ، وعلينا الظلام بهمومه ، وحولنا الأفاعى بسمومها . وأطرق مرل لا يتكلم إذ كان فى نفسه كلام آخر

ووردت علىّ الأحلام بعد الأحلام ، فاذا أنا قد نمت آخر الليل وصرعتنى الحمى

ولما سطع الفجر أبصرنا زورقا فلوّح لهم مرل ، فلما دنا منا صرخ فى النوتية أن يحملوه ، فرابهم منظره المخيف وحسبوه قاتلا قد جنى الجناية ويريد الفرار فترددوا هنيهة ، ثم قبلوا بعد أن شرط لهم حكمهم فى الأجر

ومسح الصبح على وجهى بنسيمه البارد فرد إلىّ عقلى فتناسيت أحلامى وجعلت أتلطف بمرل وأديره عن خواطره ؛ وأوهمته أن سم الأبرص قد هاج فيه مثل الحمّى بهذيانها وليس له أن يقطع باليقين فى مثل هذه الحالة . ولكنه كان فى أشد اليقين كأنما رأى رأى العين

ولما بلغنا فُرضة النهر كانت الباخرة الهولندية المسافرة إلى سنغافوره قد تحركت ، فصرخ مرل بصوت كالرعد يأمر ربانها أن يقف كأن له عليه حق الأمر ، فأدار الربان ظهره ولم يعبأ به ، فلم تكن إلا طرفة العين حتى نضا ما بقى عليه من الثياب ثم

رمى بنفسه فى الماء وجعل يسبح إلى الباخرة والتماسيح تتجه إليه وتدنو منه ، وقد ضجّ الناس وصاحوا وأجلبوا ، وكنت أتوقع بين الثانية والثانية أن يكون قد غاص به تمساح ، ولكن يظهر أن وجهه الوحشىّ وجسمه الضخم المخدش قد جعلا منه حيواناً يخيف التماسيح ... فكانت تحوم حوله ولا تناله . ورقّ له الربان ، فأمر بالقاء الحبال فاجتذبه البحارة ، فلما صار على الباخرة هتف بى أن ادفع ما شرطنا لأصحاب الزورق ولك وحدك هذه الحشرة الملعونة ...

* * *

وسكت محدثى ، فقد رأينا على بعض الأشجار القريبة من المنزل قرداً أذقن يضرب أنثاه ومن حولها اصطفت جماعة القردة كالنظارة وقد خلّوا بين الزوجين ، وكان القرد الهرم يضربها ضرباً مبرحا على رأسها وهى تصرخ وتتلوى من الألم ؛ فلما طال ذلك وثب قرد فتى فدخل بينهما يريد حماية الأنثى فانقض عليه الآخر وأقبل يطارده من شجرة الى شجرة حتى غابا جميعاً عن الأبصار

ثم تابع كرمهوت حديثه فقال : لم أر مرل بعد ذلك اليوم غير أنى لقيت ربان الباخرة الهولندية بعد أوبته فسألته عن خبره فقال :

أأنك لأنت الذى بعث إلى بهذا المجنون القاتل ؟ فقلت : المجنون القاتل . . . ! قال : نعم لقد كان مجنوناً وأوشك أن يصير قاتلاً ، فانه ما وطئت قدماه الأرض حتى هرول فى لباسه البحرى القديم الذى أعرناه إياه فاستقلّ عربة الى داره فلم يجد بها زوجته ، فاستدلّ الجيران فانبأه أحدهم أنه واجدها إذا شاء فى منزل عيّنه ، وهو من تلك المنازل التى تتخذ للفجور . فجن جنونه وطار الى ذلك المأوى ، وتعلق بفروع النبات المتسلقة على جدرانه حتى بلغ الى النافذة ، فأطل منها ، وكان قد استعار مسدساً من أحد أصدقائه فى الطريق فصوّبه وأطلقه ثلاثا ثم هبط الى الأرض واختفى

وجاء الشرطة فاقتحموا المكان ، فاذا بزوجة مرل مضرجة بدمائها وفى كتفها رصاصتان ، وقد اختبأ تحت السرير شاب أسمر اللون مرت الرصاصة الثالثة على صدره فخدشته ولم تؤذه . فنقلوا المرأة الجريح الى المستشفى وأطلقوا صاحبها

* * *

وسكت محدثى مرة أخرى لينظر الى القرد الأذقن ، وكان قد رجع من مطاردة غريمه وأخذ يهمهم لأنثاه بصوت يأمر وينهى ، وهى فى ذلك تطأطىء رأسها مذعنة . . فقطعت عليه وقلت له :

وماذا فعلت بالأرص بعد ذلك ؟

فطافت على شفتيه ابتسامة خفيفة وقال :

مكثت فى بنجرمازان ثلاثة أشهر جمعت فيها أنواعا أخرى من الحشرات ، ثم أخذنى الحنين الى وطنى استردام والى أطعمتها الشهية والجمة اللذيذة التى عُرفت بها . فجمعت أمتعتى ووضعت الأرص فى صندوق اتخذته له وكنت قد كتبت عنه وعن خواصه فى المجلات العلمية الأوربية ، ونشرت له صورا عدة ، فاشتغل العلماء بالحديث عنه فى برلين ولندن وڤينا وغيرها وباتوا يرتقبون أوبتى

وَرَسَتِ الباخرة الى مرسيليا ، فتحاشيت طوال الرحلة الاختلاط بالمسافرين ، إذ سئمت معاشرة الناس ؛ بيد أن رجلاً من الظرفاء كان قد عاش طويلا فى أنقرة مع امرأته الفرنسية جعل يتسبب لمعرفتى حتى اتصلت الأسباب بينى وبينه ،

فتجاذبنا الحديث وكان رجلاً واسع العلم فذاكرني وذاكرته ، وقد أولع بأبحاثي وقرأ مقالاتي الأخيرة وكان يعرف شيئا كثيرا عن الثعابين ، ودرس العنكبوت دراسة خاصة

وأفضى بنا الحديث يوما الى ذلك الأبرص وخواصه العجيبة ، فقصصت عليه قصة مرل فقال لولا أنك ممن يُعتقد قوله لعددتها من الأكاذيب . ثم جعل يعنى به أكثر مني ، فكان يمضي الساعات الطوال في الاشراف عليه وتأمله ومراقبة حركاته

* * *

وصرنا على مسافة يوم من مدينة عدن ، فاشتدت في الليل وطأة الحر ، فتركت حجرتي وصعدت الى ظهر الباخرة واستلقيت تحت النجوم ونمت ملء عيني ، فأني لأغط في نوم إذ نبهني طلق ناري أعقبه صياح ، وصرخ أحد البحارة : أن قد وقع رجل في الماء . فاتأدت الباخرة وأنزلوا قاربا من قوارب النجاة الى البحر ، ولكنهم لم يعثروا على جثة صديقي . . . نعم صديقي فقد انتحر غرقا بعد أن قتل أحد المسافرين الذين ركبوا من سنغافورة ، إذ رآه خارجا من مقصورة زوجته فرماه بالرصاص

لم يطب لي البقاء على ظهر الباخرة فانحدرت الى مقصورتي وما كدت أفتح بابها حتى رأيت منظراً جمدتُ له في موضعي ، فقد كان صندوق الأبرص مفتوحا ملقى على السرير ، ورأيته وهو يدب على اللحاف . . . فأدركت حينئذ من الذي أخرجه من صندوقه ... وأغلقت الباب وخففتُ لمقابلة الربان فأصبته في حجرة القتيل ومعه الطبيب يفحصان أوراقه . وما كدت أنظر حتى شُدهت ، إذ لمحت بين الأوراق صورة جميلة لزوجة مرل ! فالتفت نحوي الربان وقال : هل تعرف هذا الرجل ؟

قلت : كلا . بل أعرف هذه السيدة

ثم قصصت عليه كل ما وقع . وكان الرجل الذي قتل في الباخرة هو ذاته ذلك الذي أفسد زوجة مرل . وقد عثرنا بين أوراقه على رسائل منها تدعوه فيها أن يلحق بها في انجلترا . فمثّل الدور نفسه في الباخرة مع زوجة صديقي الآخر ... وكان الأبرص هو الذي كشفه أيضا هذه المرة

ولما علموا علم هذا الحيوان العجيب نزلوا معي الى مقصورتي . وحرك الطبيب شفتيه بكلمات لم أفهمها ، وفجأة انتزع مروحة من سعف النخل كانت على الحائط ومدها نحو السرير فاقتنص الحيوان فيها وقذف به من الكوة الى البحر

وجرى كل ذلك في مثل طرفة العين ، فلم أملك غير الصيحة وانتفضتُ من الغضب ورميت بنفسي على الطبيب أريد خنقه ، فحال بيني وبينه الربان ، وجعلت أرعد من الغيظ ، والربان يتلطف بي ويهدّىء مني ، ويزعم أن الطبيب ما أهلك الأبرص ولكن أهلك الشر

وانقطعت في مقصورتي ، وقد خابت جميع آمالي ، فلا مال ولا شهرة ولا علم ولا كرامة ، ولن أجد بعد اليوم حيوانا من هذا النوع النادر كلا ، لن أجد ...

* * *

اتكأ كرمهوت برأسه على كرسيه ثم أغمض عينيه بعد أن انتهى من القصة واسترسل في خياله

أما أنا فجعلت أفكر فيما صنع الطبيب ... لقد حرم العلماءَ شيئا من الزيادة في العلم ، ولكنها بعينها زيادة في الشر ... !

أما والله لو تكاشفَ الناس بالحقائق لقتلتهم الحقائق .

محمد الرافعي